تمظهرات الآخر عند الحطيئة

أ.د. رائدة مهدي العامري

جامعة بابل ــ كلية التربية الأساسية

شغلت المرأةُ أفكاراً كثيرة عند الشعراء، إذ اهتموا وتأثروا بها، بنظرة هامة معبّرة عن آلامِهم وأفراحِهم، في تصويرٍ حسّي ورمزي نابض معبّر عن أشياء مختلفة. وقد حملت أبعاداً ومكنوناتٍ واضحةً في النّصّ الشعري بأبعاده السوسيولوجية والأبستمولوجية والسيكولوجية والفيزيولوجية، إذ ألهمت كثيراً من الشعراء لتبني عدد من المواقف والصور الحسية والجمالية والاشهارية سواء على مستوى الغزل أو الرثاء أو النسيب وغير ذلك . فهي مُلهمة وراعية ودافِعة للحرية ومحرّكة للآمال والأحلام والصور والخيالات، وباعثة للشجاعة والرجولة والشهامة والعفّة في كثير من الأحيان. وقد تكون لدى بعضهم مصدرا للآلام والأحزان وخيبات الأمل وانقطاع النسب في مواقف انقطاع الوصل والرحال أو المرض أو الموت أو الاقتتال القبلي وغير ذلك مما يجلب الحزن واليأس في قلب الشاعر الملتاع المتيم بها ، حيث تبلورت هذه الصور عبر تجليلات بنيوية تركيبية ودلالية في جسد القصيدة العربية في العصور المختلفة عند معظم الشعراء بصورة عامة، والحطيئة بصورة خاصة.

وبسبب المؤثرات البيئية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية التي عاشها الحطيئة ــ طوال حياته ــ من تناقضات وازدواجيات وتقلبات، وما اتّسمت به بيئتُه المُهيمِنة، ورحلاته المتعددة وغير المستقرة في كثير من الأحيان، إلى جانب باعثه الشعري القيمي المتراكم، جعل ذلك كلّه أن يجمع بين المتناقضات ـ ليخلقَ عنصر الموازنة في شعره ــ من جانب، إذ نلتمس التباين في رؤيته لتناول موضوعة الأنثى، بين القريبة والبعيدة من جانب أخر، إذ نظر الشاعر للأنثى الأم والزوجة والحبيبة المتخيلة، فخاطبها في النصّ الشعري، برؤية فلسفية ضمن فلسفته للحياة بشكل عام.

ويتضمن النصّ الشعري الأنثوي عند الحطيئة محاور عدة يمكن أن نوضحها على وفق رؤيته لها عن طريق الارتباط العاطفي المتخيل والمتنوع، والرؤية الثقافية بكافة أنساقها المحيطة بالمرأة كدال له عدة دلالات متنوعة

أسهمت في خلق معنى الحياة في تلك العصور وتطورت هذه الدلالات شيئا فشيء إلى أن وصلت إلى دلالات حيّة متفاعلة متفانية في خلق النص الشعري، تتصارع مع دلالات الآخر المُهيمِن المُفضي لها، لتجد لها مكاناً ضمن نسيج الجسد أو السّجاد الشّعري عند جميع الشّعراء، وهي تتباين بحسب طبيعة الشاعر بين السّلب أو الإيجاب، أو بين تكوينه الذي تكتملُ فيه عناصر معينة، إذ إنَهُ يجسّدُ نفسه لا شعوريًا، ولاإرادياً مأخوذاً بالفكرة وبالتعبير عنها فعلى الرغم من حالات الإقصاء والتهميش التي عانتها المرأة في تلك العصور إلا ان الشاعر كان بمثابة الإعلامي الذي يحمل همومها ويبرز مشاكلها ويبث الروح والحياة والأمل فيها عن طريق شعره الذي تتجلى فيه صور المرأة بمختلف دلالاتها ، فضلا عن بعض النساء اللواتي اثبتن وجودهن على الساحة الأدبية في مجال الشعر أو النثر.

لذا ارتأتيت أن أتناول في هذه الورقة البحثية تجليات المرأة وتمثلاتها في شعر الحطيئة الذي يُعُدّ مِن فحولِ الشّعراء المُخضرمين والإشكاليين في الوقت نفسه؛ فهو ظاهرةً اختلف حولها كثيرٌ من النقاد. وقد شغل نصه الشعري حيزاً كبيراً في مجالات منوعة،عبر رؤيته وإحساسه العميق بعطائه الشعري واعتقاده الفلسفي والديني، فجاء تجسيداً لعدد هائل من الإيحاءات، والدلالات التي خاض فيها الشعر العربي ليبحر في سبر أغوارها العميقة، بخاصية النسق الأنثوي.

ولا يُخفى عن المتلقي أنَّ الشَّاعر عاشَ جانباً مِن حياته في عصر ما قبل الإسلام، وجانباً منها في عصر صدر الإسلام، ومدّة وجيزة في العصر الأموي، فامتلك بذلك المعرفة الكافية بمتغيرات وثقافات العصور التي عاشها بمختلف مجالاتها وأحداثها وتطوراتها. فضلاً عن تبنيه منهج مدرسة الصنعة التي كان الحطيئة من أبرز أساتيذها بعد اوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى. لذا فهو مِن أبرز شعراء الشعر المُتكلف الذي قوّم شعره بالثقات ونقّحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر، فضلاً عن الشعر المطبوع أيضا[١]،فهو من متصدري المدرسة الأوسية إذ إن " زهير كان راوية اوس، وإن الحطيئة أخذ عن زهير، فسلسلة الشّعر متصلة من قبل النسب كما هي متصلة به من قبل التعليم والرواية" [٢]. فاكتسب شعره بمتانة، وقوة، وعذوبة الأسلوب، والقدرة على التصرف في فنون القول من مديح وهجاء وفخر ونسيب، والذي يُعدُّ مِن عبيد الشعر[٣] ، وامتلك صفات الصناعة الشعرية مِمَا رفع شعره إلى مكانة مرموقة في بحر الشّعر، حتى عدّه كثير من النقاد في مُقدّمة الشعراء فجعله الأصفهاني،"من فحول الشّعراء ومتصرف في جميع فنون الشعر ويجيد فيها" [٤]. ووصف ابن سلّام شعره بالمتانة وشرود القافية، فضلا جزالة وصلابة اللفظ وعمق الدلالة، إذ يملك فكر ومذهب في الشعر والحياة

ويحمل عمق وذو دلالة على واقعه النفسي. فقد عاش حياته ساخطا ناقما ثائرا على كل ما لا يرضاه [٥]. وعلى الرغم من ذلك يحمل شخصية قوية وإرادة صلبة وموهبة فذَّة.

إذ يشكّل الشّاعر في النّص الشّعري نسقاً بتأسيس لمفهوم ابستمولوجي ليعبر عن (مدى ارتباطه بمفهوم الحقيقة والمعتقد والتشكيك بالحقيقة)، إنّه محايد لنسق البداوة الذي يُمثل نسق الاستقرار، والحثّ عن النسب والانتماء إليه. وفي الرجوع والعودة إلى أحضان القبيلة لتحقيق ما هو مخبوء في اللاوعي الجمعي. إذ كانت شخصية الشاعر في صميمها شخصية متناقضة تحيا على الصراع والتوتر والتمزق الداخلي كقوله :

أرَى لِي وَجهاً شوّه اللهُ خَلْقَهُ فَقُبّح مِن وجهٍ وقُبّح حَاملَه [٦]

نرى الشاعر هاجياً ذاتهُ متخذاً منها (آخر) يستحق الذم والهجاء لدمامة خلقته، إذ يخلع القناع عن نفسه ويكشفه للناس بإشهار بالغ الوقع والسخرية وهو يحتج على نفسه بنفسه وهذه مفارقة غريبة عجيبة تصل بشاعر كبير حصيف رصين مثل الحطيئة إن يشهر عن ذم نفسه بهذه الطريقة التهكمية الساخرة، ما لم تكن وراءَ ذلك أسباب نفسيةٌ أو اجتماعيةٌ عِقديّةٌ قاسيّة جدا، دفعته للقسوة على نفسه وذمّها بهذا الشكل وهذا الأسلاب الإشهاري الساخر، وهنا يمكن معرفة ذلك العمق النفسي الذي تأزم في ذاته حتى طفح بتناقضات عدَّة وصار متخذاً من ذاته القناع / آخر الإشهار المفارق شاعراً بالدونية نحو ذلك (الآخر/ الذات) بسبب قصره فيكون هاجياً وذاماً لخلقته كونه ضئيل الجسم.

وهو على خلاف مستمر مع الآخر/ الذات لدمامة الشكل، فلا يمكنه الخروج من هذا الواقع المرير بالنقمة الصارخة واللعنة الصريحة على ذات الآخر، تلك هي العقدة التي تنفر من ذاته الواقعي المشوّه فيلعن بذلك الشيء بلا تردد لتؤثر كثيرا في أغناء الصور الهجائية بروح السخرية والنقد الاجتماعي اللاذع[٧].

والذي يثير التساؤل:

– ما طبيعة علاقة الحطيئة مع الآخر/ الأنثى؟

– كيف يمكن أن نفسر سلوكه؟

– هل للبيئة أثر في ذلك الاضطراب الذي نشهده في النص الشعري؟

إذ إن الشاعر ينظر إلى الأنثى في المنجز الشعري، ولكن أية أنثى؟ وما بواعث نظرته الخاصة، وميوله التي جعلها أساس رؤيتهِ وخطابه لها.

وللإجابة عن هذا سنحاول التعرف على أوجه النسق الأنثوي/ المرأة عند الحطيئة، من حيث كثافتها وحمولاتها الدلالية وتحولاتها في النصّ الشعري. والتي يمكن أن توزع بين محورين هما:

الآخر/ المرأة المُقربَّة

ثيمة المرأة تحملُ خصوصية تشير إلى طاقة نسقية استمدها الشاعر إلى درجة التوصيف الدقيق وفي إثبات وجوده المهمش. فالشاعرُ لا يشعرُ بحنان الأم ولا يرتبط بوالدته بذلك الرباط الإنساني الحي، الذي يجعله يألفها ويفضي لها همومه*، وأن يحيا الإنسان في حالة دائمة من الكره حتى تشحن أعصابه بالصور المشوهة الماسخة، وتتصعد في شعره بتلك المعاني القيمة التي لا ترى في الناس سوى المنكر والأذى، ويتحقق لنا من هذا أن نقمته امتداد على واقعه الذي لا يمكنه أن يتحرر منه [٨]. فضلاً عن أن مثل هذه المؤثرات كفيلة بأن تجعل من الحطيئة آخر إلى المرأة.

إذ كان الشاعر مدخول النسب، وهذا ما أدى لوجود بداية التنمر التي ولدت لديه من الجملة الأولى التي قالتها أمه : (لست لواحد ولا لأثنين)، فذلك التوتر الشديد لمحيط الشاعر انعكس على النص الشعري نظرة عامة على نظرته للمرأة خاصة، كونها امرأة جاهلة يتواقع معها الناس دون أن تجد في ذلك حرجا أو مهانة، ولم تكن تخفي جهلها لوالد ابنها بل كانت تعلنه دون خجل. فهذا كلّهُ أثره وتأثيره العميق في نفسية الشاعر، فنشا جرحا عميقا وجعله يعيش بذلة مهينة في كنف والدته [٩]. وهو بذلك قد أشار إلى روح الانتقام من الآخر/ أمه من جانب، وعلى الآخرين بشكل عام من جانب أخر، وذلك لضياع وفقدان الهوية الداخلية في نفسيته عن طريق الأهل ، واثبات الذات والوجود للآخر، وهذا يفسر انتقاله باحثا عن نسبه من قبيلة إلى أخرى ليثبت ذاته ويميز شعره الذي هو وسيلة للتعبير عن غضبه الذي يسكب كل نوازعه النفسية وقد نقلها في حروفه، التي تحمل السخط والمعاناة تجاه ذاته وتجاه الآخر.

ولاشك في أن فقدان الهوية تجاه الأب والعلاقة المتوترة مع الأم لها الأثر البالغ في نفسية الشاعر، حتى أصبحت نظرة القبائل له متعصّبة وحانقة ؛ مما أدى إلى توغل الذلة والتمرد في بناء شخصيته، لتجعل منه

*

شخصا محطما من الداخل، فضلا عن منظر وجهه الخارجي واحتقار الآخر وما تضيفه له أمه مأساة أخرى يترجمها بقوله:

تَقولُ لِيَ الضَراءُ لَستَ لِواحِدٍ وَلا اِثنَينِ فَانظُر كَيفَ شِركُ أولَئِكا

وَأَنتَ اِمرُؤٌ تَبغي أَباً قَد ضَلَلتَهُ هَبِلتَ أَلَمّا تَستَفِق مِن ضَلالِكا؟ (١٠)

يتجلى بشكل واضح صوت النقيضين(الأنا/ الشاعرة) المتمثلة بشاعر يبحث عن إثبات نسبه حيال مجتمع متحول من الجاهلية إلى الإسلام صار الكل فيه يتبجح بالعفة وعلو الحب والنسب، وصوت (الآخر/ الأم) بقولها إنه ذو حسب مشترك، ولا ذنب لها في ذلك إلا إنّها كانت تحت وطأة نسق عام كان يسمح بكل ذلك من دون ضير. لكن التحول الثقافي الذي شهدهُ المجتمع على كل الصعد جعل من الحطيئة شخصا آخر بالنسبة للمجتمع من جانب، ومن أَم الحطيئة (الضراء) آخر بالنسبة لولدها. لقد طبع هذا الجرح النفسي المعنوي صورة سلبية في ذهنية وشعرية الحطيئة، فيعجب ويسال عما فعله لترتكب أمه ذنبه بأسلوب إشهاري حجاجي فلسفي تأملي وجودي وعدمي في الوقت نفسه. ومن ثم صار التجلي هنا تجليا سلبيا يشعر بالأسف والندم والحيف كونه ولد مظلوما مهموما متهما. كل هذا صَّعد من وتيرة الهجاء والحمق والعداء ضد الآخر/ المرأة, وكما يقول بروكلمان " يُعدُّ الحطيئة أهجي الشّعراء القدامى"(١١)، إذ إن السخط وحده لا يخلق هجاء ولا يحتاج إلى عمق التفكير والخيال، بل الهجاء يدفعه إليه بغضبه، فتكشف مواهبه عن طريق الغضب، وبما يملكه من دقة الملاحظة. إذ إنه ينظر بعين الناقد الذي يتلمس العيوب غالباً. ويتخذ الأسلوب المعتمد على الذكاء، ولا يرسل الفكرة مباشرة بل يلمح بها بلباقة وبسخرية كي يثير حفيظة الآخر ويستفزه ويداعب الفكر ويتلاعب بالأشياء. فهجاؤه لا يقتصر على الدلالة المادية فحسب، بل رمز وإشارة للنقمة . كلُّ هذه الضغوطات المجتمعية والتحولات الثقافية التي طرأت على حياة الحطيئة جعلت منه شخصية ناقمة على (الآخر/ أمه)، حتى راح يهجوها بأشد أنواع الهجاء بقوله:

جَزاكِ اللهُ شَرّاً مِن عَجوزٍ وَلَقّاكِ العُقوقَ مِنَ البَنينا

فقدْ سُوستِ أمرَ بنيكِ حتى تركتهمُ أدقّ مِن الطحينا

لسانك مبردٌ لم يبقِ شيئـاً ودَركِ درُ جاذبةٍ دَهِينا

وإنْ تخلى وأمرك لا تصوني بِمُشتد قواهُ ولا متينِـا

نشعر بوجود افتراض لوجود بنية نفسية تحتية للنص متجذرة في اللاوعي عند الشاعر، تنعكس بصورة تصعيدية على سطح النص لا معنى لهذا السطح دون استحضار تلك البنية الباطنية التي تشبه علاقتها بظاهرة علاقة الحقيقة بالمجاز في التعبير الواحد [١٢]، فالعلاقة بينهما تبادل من التأثير والتأثر، وان النص الشعري لا يخلو من نفحات تستند بشكل جلي على النسق الذي تتمظهر فيه المرأة كونها آخر.

من المفارقة أن يدعو ابن على أمه بالعقوق ((جزاك اللهُ شراً مِن عجوزٍ ولقاك العقوقَ مِن البنين)) ، ويحتج عليها بعدد من الحجج ((فقد سوستِ أمرَ بنيك حتى تركتهم أدق مِن الطحين .....لسانك جرد لا خير فيه ودرك در جاذبه دهين)). والأغرب من ذلك أن الشاعر قد خلع القناع عن نفسه كما خلعت هي القناع عن نفسها فصار الخطاب مابين الأم وولدها خطابا حجاجيا اشهاريا فلسفيا (الوجود/ العدم) مباشرا .

فالأم مأوى الاحترام والثناء والعطاء والركائز التي يستند عليها الأبناء. إلا إننا نلمح غضب وتمرد الشاعر على تلك الأم وعدّها آخر يتمنى لها الهلاك وهي لم تع طمس الهوية له بل طمست هويتها بجهلها لذاتها، وليس لذات الآخر مهما كانت نسبة قربها لها. كما يقول:

تَنَحَّي فَاِجلِسي مِنّا بَعيداً أَراحَ اللهُ مِنكِ العالَمينا

أَغِربالاً إذا اِستودِعتِ سِرّاً وَكانوناً عَلى المُتَحَدِّثينا

أَلَم أوضِح لَكِ البَغضاءَ مِنّي وَلَكِن لا إِخالُكِ تَعقِلينا

حَياتُكِ ما عَلِمتُ حَياةُ سوءٍ وَمَوتُكِ قَد يَسُرُّ الصالِحينا

نجد الشاعر أمام رؤية ضبابية تسودها الإهانة والألم وخيبة الأمل كونها نسفت هويته، وأضاعت ثقته بنفسه ، مما خلق منه شخصا يرغب بالانتقام، فقد صبّ جام غضبه على أمه متخذا منها آخر مُهيجا كما يرى ذلك،

كونّها سليطة اللسان فاقدة الحياء... وهذا يوحي برسالة تحمل شفرات الانتقام للآخر، ولا يكتفِ الشاعر بالآخر، بل راح ذامّا أمه كونّها شريك للآخر في ما أصابه.

قد عاشَ الشّاعر مع الشعر بما فرضته له الحياة فيجعل منه محمل بالهجاء لجعل الآخرين يخشون هجاءه ـ الملوك والشخصيات المهمة ـ فتتضح لنا الدوافع الفيزويولوجية والانتقام من العالم الخارجي فضلا عن الدوافع الأيدلوجية النفسية لدى الشاعر، فكان الشعر هو المهرب الوحيد من المؤثر الداخلي والألم، وبذلك سعى الشاعر كثيرا لتحقيق ذاته لكن لم يستطع من جهة النسب, بل حقق لنفسه شيء من الاعتبار بين الناس لما يحمله من علم ومن أدب.

لاشك في أن النظرة العميقة للنص تُظهر لنا ثقافته المتفردة المتمردة ذات المنابع الصحراوية العربية، والتي تمرر انساقاً ثقافية مهيمنة محاول إثبات نسق وثقافة جديدة سارت تفتخر بالنسب أكثر من ذي قبل، والذي يشكل هاجساً سلطوياً مهيمنا، ليكون وليد القلق والتهميش والاغتراب الثقافي والاجتماعي الذي كان يعاني منه.

فللنص ثمة زمن يناسبه وواقع خاص به في ثقافته وتفكيره، أي زمن ديناميكي تفرضه رؤيا وعواطف لتحمل معالجات لمواضع غير مألوفة، والتي تسكنها أبعاد فلسفية، فالرؤية الثقافية للنصّ أوصلت البحث إلى رؤية الروافد المعرفية التي غذت هذه النصوص، فبنية الخروج النسقي تشكل هاجس الشاعر عن النسق السلطوي المهيمن الناتج لفكره من جانب، وعن رفض الآخر له من جانب أخر، وذلك بسبب التراكمات لإثبات الوجود، أي أن الشاعر المتمرد حاول ملياً بشكل أو بآخر أن يثبت وجوده في المجتمع المهيمن، ووجد انسب طريق لذلك شعر الهجاء، عندما اتخذ من (المرأة / الأم) آخراً معادياً ومعادلاً موضوعياً لكل معاناته.

الآخر/ المرأة البعيدة

إنَّ حضور المرأة في النَّص الشّعري له دلالة اجتماعية، فهو يتضمن إعادة رسم صورتها عند المتلقي عن طريق أدوات يمتلك شفراتها المتلقي، ليتمكن من الولوج إلى عالم النصّ الشعري، للكشف عن أسراره وفك رموزه، على مستوى التشكيل المنجز الشعري. فللشاعر رؤيته في الأنثى التي تدّل على العمق الإنساني والبعد الثقافي،

إذ تتطلب النظر بالأنساق البعيدة، مستنكرًا وساخرًا ، فهذه دلالة على جرأة الشاعر وصراحته وقوة، إذ اتخذ من الشعر الإيقاظ والخروج من الهيمنة، لاسيما أنه عاش أصعب حياته في بيئة مهيمنة رافضة له.

إذ إن كل أبعاد المرأة، هي متركزة حوله بوصفه شاعراً ذكورياً، مركزاً على القيم الجمالية دون أن يتعرض لنقد هذه القيم الثقافية. فيجعلها مشحونة بمواقفه ورؤيته في التعبير عن متاعب الحياة [١٣]، ثم ينعطف إلى التشبيه ليقارن بين النساء الظواعن بالظباء في موضع وجرة وقد استكانت في مرابضها اتقاء الهاجرة برؤية ذا قدرة ودقة ملاحظة، وأناقة الانتقاء، وجمال التعبير [١٤]. فهذه الحرة غير المستقرة خافضة تارة ورافعة أخرى تمنح الشاعر الراحة، و"الاطمئنان لفكرة الخير والتفاؤل بانتصار الحياة" [١٥]. إذ يقول:

وفي كل مُمسى ليلةٍ أو معرسٍ خيالٌ يوافي الركبَ منْ أم معبدِ

فحيامِ ودٌ ما هداكِ لفتيةٍ وخوصٍ بأعلىَ ذي طوالةَ هجـدِ

تسديتنا منْ بعدِ مانامَ الـــــــــكلاب وأخبى ناره كل موقـدِ

بأرضٍ ترى شخصَ الحبارى كأنه بها راكبٌ عالٍ على ظهرِ قردِ [١٦]

تتضح لنا رؤية النسق الآخر/ المرأة لدى الشاعر في النّص الشعري الغزل الحسي الصريح، ووصف يحاكي طيفها في مخيلته؛ ليخفف عنه وحشية الصحراء وعتمة ليلها، كبناء هندسي منظم على وفق آلية نسقية بعيده عن النمطية، فقد اجتمع الزمكان كسلسلة متلاحمة الحلقات بمثابة منظومة ثقافية فنية إبداعية تقوم بتوظيف مفردة الليل؛ لتجعل منه زمناً متغيراً ورمزاً من رموزه الخوف. إذ يقول:

ألا طَرقت هندُ الهنودِ وَصُحبتَي بِحورانَ حورانِ الجنودِ هُجودُ

فلَم تَر إلا فِتيةً ورِحالُهم وجرداً على أثباجهن لُبودُ

وَكم دونَ لَيلى مِن عدوٍ وبلدَةٍ بِها لِلعتاقِ النِاجياتِ بَريدُ

وخرقٍ يُجر القومَ أن ينطقوا به وتمشي به الوجناءُ وَهيَ لَهيدُ

كأن لَم تُقم أظعانُ هندٍ بملتقىً ولمَ تَرع في الحيِ الحلالِ ترودُ

ولمَ تحتلِ جنبي أثالَ إلى المِلا وَلَم تَرع قواً حِذيمٌ وأسيدُ

بها العينُ يحفرنَ الرخامى كأنها نَصارى على حينِ الصلاةِ سُجودُ

إذا حدثت أن الذي بي قاتلي منَ الحُب قالت : ثابتٌ ويزيدُ

إذا ما نأت كانت لقلبي علاقةٌ وفي الحي عنها هجرةٌ وصدودُ
سخونُ الشتاءِ يدفيءُ القر مَسها وفي الصيفِ جماءُ العظامِ برودُ
عبير ومسك آخر الليلِ نشرها به بعد علات البخيل تجودُ
تذكرتُ هنداً فالفؤاد عميدُ وشطت نَواها فالمزار بعيدُ
تذكرتها فارفَض دمعي كأنهُ نثير جمانٍ بينهنّ فريدُ
غفولٌ فلا تُخشى غوائلُ شرِها عنِ الزادِ ميسانُ العِشي رقودُ [١٧]

فينطلق الشاعر من الواقع في هذا النص ناقدا وناقما لتلك النظرة المهيمنة التي كانت سائدة في المجتمع وتشير بذلك إلى الإطراء والتهميش والشاعر في الوقت نفسه ينتصر على ضغوطات المجتمع، فنلتمس هنا نسق يلمح للرهبة ويرافقها الحزن والألم، التي تشير لنفسيته وذاته المجروحة إشارة لزمناً مفتوحاً ممتداً على مشاعر السعادة والبهجة [١٨]. إن المرأة ما هي إلا رمز للحياة وإيقونة للجمال، فكأن الشاعر يملك رؤية مغايرة للحبيبة ترتبط بمخيال بعيد يحمل في طياته حياة وحرية الذات، وهذا يفسر إنَّ نقمة الحطيئة لم تكن عامة على المرآة بل على أمه كونّها مسخت هويته النسبية، بل يعكس لنا تجليا آخر ونسقا آخر له وهو حب المرأة والتغني بها فهو مهما يكن يظل أنسانا لا يمكنه أن ينسلخ من قاعدة الحياة التي أقيمت عليها البشرية.

ففكرة الاستقرار مهدت لفكرة أخرى، وهي فكرة الأخذ المفرط من الآخر، لأنَّ طبيعة النفس البشرية تميلُ إلى التغيير وترفضُ الثبات، فكلُّ شيء يتغير وينمو فالإنسان يمر بمراحل بيولوجية متغيرة تنتج عنها تغيرات سيكولوجية في تغيّر مستمر دون وجود ثبات كوني. فالاستقرار مهد لظهور نسق الإفراط في الأخذ من الأخر، فهو يكشف عن حالة فكرية ونفسية ناتجة عن التنوع بين الأشياء والشعور بقيمة هذا التنوع وعادةً هذا ينشأ في التعقيد والتشابك.

فالشاعر يعاني من بواعث راغمة للهجاء، كان نوع من التخفيف والألم الداخلي ولا يقوى على التحرر من ذلك لأنه يؤكد على حالة من التوتر والنقمة على الآخرين [١٩]. إذ إنها منظومة ثقافية ينهض النص على أساسها كمنظومة البعد لتسلط الضوء على الفكر لتوجه العمل الأدبي وتسيطر على النتاج الإبداعي. وقد يؤدي لوجود سلطة تشكل شحنة قويّة تؤدي إلى ما يسمى بـ النفوذ/ والهيمنة.

إنَّ إلقاء الضوء على الجانب الصعب في النسق الأنثوي خطاب في حد ذاته وقيمه الفنية والأدبية، في الحقيقة أن من يقف على حرف الحطيئة هو مغامرة لما يملكه النص من ثراء وعطاء أدبي وفكري ونفسي.

النص يحملُ صورا تجعل المتلقي يحيي تجربة نفسية بنطاق ذي أفق واسع تتغلغل في نسيج النص الشعري. تجد صراعا بين الحياة والبقاء والفناء الرمزي الداخلي محاولا بيان قوته ومقاومته ضعفه أمام الآخر. قد عبر الشاعر عن إحساسه وعواطفه يصب عن طريقها وجدانه حيث تتمثل بالمرأة وهو يسكب كل أحزانه وآلامه.

إذ إن صراعه المتواصل الذي يطبع نمط حياته ويدفعه إلى الهجاء من اجل البقاء، نجد النص مفعما بالحركة والتصوير الحسي، ويعبر عن عمق نفسيته ووجدانه مستمدة من حياته وبيئته. فنجد اتصالا واضحا بين رؤية الواضحة الفاعلة ورؤية للآخر المنفصلة في صراع وجدال يتعلق بالتمرد والهيمنة للآخر فهناك ارتباط وثيق بينهما.

ولاشك في أن هذه الأنساق تكشف معالم ورؤى ذات الشاعر، نلمح مزاوجة بين الشعور وجوب الاعتراف بكينونته التي نلمح فيها صراع على نسق واسع يتجلى في علاقات متنوعة. فضلا عن صور سياقية للنص عن طريق الإمكانيات الدلالية بوصفها دلالة في مظاهرها. إذ إنّه صراع وعدم توازن بين نفسه وبين الآخر، فيشعر بوضعه المضطرب الذي يعانيه ليعوض النقص الحاصل لديه، فالشاعر شخصية مركبة انطوائية وذلك انه لا يحقق ذاته ووجوده في شخصيته.

نستشف بذلك عن رؤى تفضي إلى صراع داخلي وإشارة إلى القلق والمعاناة النفسية الناجمة من الصراع البيئي/ الأم، ومع المجتمع الخارجي/ القبيلة أو النسب ، فضلا عن البعد التأثري التي تسهم في كسر أفق التوقع، وتمثل قيمة وظاهرة تحمل خاصية واضحة وهو الانحراف والابتعاد عن التعارف، تنامي بدقة واضحة إحساس الابن وصعوبة موقف الأم التي لا تخفي أخطاءها.

الخاتمة

- الحطيئة كالشعراء الآخرين ذو حس مرهف تجاه المرأة وإحساس صادق وجياش، وهو من أساطين العصر الذي اشتهر في (الهجاء) كإيقونة بارزة لذلك العصر فأرتاده الشاعر فهو لم يهج أو يذم إلا لدوافع أوردناها منها نفسية تتعلق بدناءة حسبه، أو تاريخية تتعلق بتقلب نسق ثقافي عام من جاهلي إلى أسلامي عاشه الشاعر، أو اجتماعي صار ساخراً منه ومعيباً عليه وغيره.

- أما نظرته للمرأة فهي أما عدَّوة متخذها آخر، وذلك كان حال النساء مجتمعه بالنسبة له بدءا بأمه، على الرغم من أن سبب هذه النظرة هو المجتمع لا المرأة أيضا. فالمجتمع من جعل الشاعر يتخذ منها موقف الآخر بالداخل. فنراه بمجرد حله ورحاله من ذلك المجتمع الناقم يعود الشاعر متخذاً من المرأة / الحبيبة والآخر البعيد.

- يتضح لنا أنَّ الحطيئة يحقد على الآخر/ المرأة، وعلى أمه بسبب ذلك التحول الثقافي الإسلامي العام الذي شهده المجتمع عامة والشاعر خاصة، كونه وقع ضحية ازدواجية ثقافية حتى صار سفيرا مخضرما مذموما ، وحاملا تناقضات عصرين (الجاهلي/ الإسلامي). وما يؤكد صدق كلامنا أن الشاعر كان يصدر كلَّ ذمه (للآخر/ المرأة) بعبارة : (الله) كقولهِ: (جزأك الله شراً من عجوز...) و(تنحي وجلي عني بعيدا راح الله منك العالمينا).

- ويبدو أن ما ارتكبته أمه من ذنب كان في عصر الجاهلية وبيع النساء والجواري ولمَ وعى في عصر الإسلام صار الماضي تابو محرما وذنبا ليس مغتفرا ، والحقيقة أن التحول الثقافي والعقائدي من الوثنية إلى الإسلام، ربّما يكون مبررا لعدم تحامل الحطيئة على عصر ومجتمع جاهلي وثني، كان يبيع ويشتري المرأة في الأسواق، ويعتبرها جزءا من شهواته وملذاته وقطعة من أثاثه أو من خدمه ، فكانت النظرة إلى المرأة نظرة غرائزية حيوانية عند اغلب الناس أو نظرة استعبادية للعمل في السخرة تحت طاعة الرجل، فربّما أن أم الحطيئة لم تُشهر عن ذنبها الذي اقترفته إلا لكون عقيدة ذلك العصر الوثني الذي كان يجبرها على فعل ما تكره، وبذلك لم نعد عتب وسؤال الحطيئة لأمه مقبولا إذا كانت الأسباب التي طرحت، قد مرّت فعلا بها امه . فلو فعل كلَّ إنسان جاهلي ما فعل الحطيئة لانقلبت الأمة إلى

جحيم . ولكنَّ الحطيئة جسَّد ذلك في شعره ، كونه أكثر الناس مرافقا وكثير الاحتكاك بالملوك والطبقات الرفيعة فعزّ عليه أن يكون مغموز النسب لذلك شهَّر وصعّد وبالغ في قضية فعل أمه .

الفهرس

١. الشعر والشعراء : ابن قتيبة، ٧٨/١..
٢. تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي والعصر الإسلامي – طه حسين : ٢٨٣/١..
٣. ينظر : البيان والتبيين : ١٣/٢.
٤. الاغاني: أبو الفرج الاصفاني،١٣٠
٥. الحطيئة اوس بن حجر بن جرول العبسي، اسعد ذياب ، دار الفكر العربي، لبنان،ط١، ١٩٩٨، ص١٣
٦. ديوان الحطيئة: ١٥
٧. فن الهجاء وتطوره عند العرب: إيليا الحاوي، ١٢.
٨. الهجاء وتطور عند العرب: إيليا حاوي، دار الثقافية بيروت لبنان ، د.ط. د س ص ١٣٦ – ١٣.
٩. فن الهجاء وتطوره عند العرب: إيليا حاوي، دار الثقافة العربية بيروت لبنان، د.ط س، ١٢١.
١٠. ديوان الحطيئة: ١٤٠.
١١. الأغاني: أبو الفرج الاصفاني،١٤٠
١٢. النقد الأدبي الحديث: احمد كمال زكي، ٢٤٨.
١٣. ينظر:: علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي (مقاربات نقدية): د. سمير خليل، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد– ٢٠٠٨م: ٨١
١٤. شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين :٣١٣.
١٥. قراءة ثانية لشعرنا القديم :٧٠–٧١.
١٦. ديوان الحطيئة : ٧٣–٧٤. معرس : موضع نزول القوم في أخر الليل ، الركب : أصحاب الإبل ، خوص : ابل غائرة العيون ، طولة : موضع بئر ، الدو : ارض ليس يهتدي إليها الناس ، القردر : المستوى الغليظ .
١٧. ديوان الحطيئة :٢٨٤–٢٨٧. اثاجهن : اوساطهن ، بريد : السرعة ، الخرق : الأرض البعيدة ، الوجناء : الغليظة ، الحلال : الكثير ، العين : البقر ، الرخامى : شجر يسرع إليه البقر، ارفض : انتشر ، الجمان : اللؤلؤ من فضة ، فريد : در، ميسان : منعاس .
١٨. الزمن في مداخل نقد الشعر القديم :٣١.
١٩. الهجاء والهجاءون في الجاهلية:محمد حسين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،ط٣،

المصادر

– الأغاني: أبو الفرج الاصفاني: طبعة دار صادر بتحقيق إحسان عباس،٢٠٠٩

- البيان والتبيين : أبي عثمان عمرو بن الجاحظ ، مكتبة الخانجي، ٢٠٠٦ –

– من تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي والعصر الإسلامي – : د. طه حسين،الجزء الاول، دار العلم للملايين،١٩٨٢م.

– الحطيئة اوس بن حجر بن جرول العبسي، اسعد ذياب ، دار الفكر العربي، لبنان،ط١، ١٩٩٨.

– ديوان الحطيئة : شرح ابن السكيت وتاسكري و السجستاني، تحقيق: نعمان امين طه، مصر ـ القاهرة

– الزمن في مداخل نقد الشعر القديم :د. حسين جمعة ، مجلة المعرفة، العدد ٢٧٠/ ٢٠٠٢.

– شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين : محمود عبد الله الجادر، دار الرسالة للطباعة، بغداد ، ١٩٧٩.

– الشعر والشعراء : لابن قتيبة، تحقيق وشرح: احمد محمد شاكر ، الجزء الأول، دار المعارف ـ القاهرة.

– علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي (مقاربات نقدية): د. سمير خليل، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد– ٢٠٠٨م.

– فن الهجاء وتطوره عند العرب: إيليا حاوي، دار الثقافة العربية بيروت لبنان، د.ط س،.

– قراءة ثانية لشعرنا القديم :مصطفى ناصف، دار الأندلس للطباعة والنشر،١٩٩٥.

– النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته: د. احمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣.

– الهجاء والهجاءون في الجاهلية:محمد حسين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،ط٣، ١٩٧٣.

– الهجاء وتطور عند العرب: إيليا حاوي، دار الثقافية بيروت لبنان ، د.ط. د س .